البعد المقصدي في التراث العربي النقدي والبلاغي قراءة في أصول التداولية التراثية

The Intentional Dimension in the Arab Critical and Rhetorical Heritage A Reading in the Origins of Heritage Pragmatics

د. حياة جابي

1- جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 (الجزائر)، djabihayet@gmail.com

تاريخ الاستلام:2023/07/26 **تاريخ القبول:2024/02/25**

الملخص:

أولى الخطاب النقدي العربي القديم القصد إلى التأليف أو(المقصدية) اهتماما كبيرا سواء أكان ذلك تأليفا أو تلقيا، إذ جعل الاستجابة الجمالية للظاهرة الإبداعية شعرا كانت أم نثرا موقوفة على القصد إلى تأليف الشعر أوّلا، ثم تلقي ذلك الكلام على نحو تلك القصدية ثانيا حتى تستوي بذلك المقاصد إنتاجا وتلقيا، لذلك جاءت هذه الورقة البحثية لتكشف عن أهمية هذا الأساس الذي شغل النقاد والبلاغيين العرب في نظريتهم الشعرية وفي شروط التلقي السليم للشعر والخطابة.

فكيف كانت نظرة نقادنا القدماء إلى القصد؟ ما هي الشروط التي حددت سمة القصدية عندهم، خاصة إذا عرفنا أنهم ربطوا التفاهم أو الفهم الصحيح للنصوص وتأويلها تأويلا سليما لا يتم إلاّ بإدراك مقاصد النص؟ هل ثمة تقارب بين هذه الأفكار وبين ما دعا إليه رواد التداولية الغربية في مجال القصد الذي جعلوه بدورهم جوهر العملية التواصلية في الخطاب، مع مراعاة المفارقات السياقية الموجودة بين الخلفيات التراثية العربية والدراسات الغربية المعاصرة.

الكلمات المفتاحية: التراث، القصد أو المقصدية، المقام، التداولية.

Abstract:

The old Arab critical discourse had given a great attention to authorship or (intentionality); be it authorship or reception. It made the aesthetic response to the phenomenon of creative poetry or prose dependent on the intention to compose poetry first, and then receive that speech in the manner of that intentionality in a second time; so as the purposes of production and reception become equal. This topic reveals the importance of this

basis, which has occupied the minds of Arab critics and rhetoricians in their poetic theory and in the conditions of proper reception of poetry and rhetoric.

How did our ancient critics view intention? What are the conditions that determined their intentionality? Is there a convergence between these ideas and what the pioneers of Western pragmatics advocated in the field of intentionality, which in turn was made the core of the communicative process in discourse, taking into account the contextual paradoxes that exist between Arab heritage backgrounds and contemporary Western studies?

Keywords: heritage, intentionality, denominator, pragmatics

مقدمة:

يعد مفهوم المقصدية ركيزة من ركائز التأويلية المعاصرة، وبناء شامخا في مفاهيم التداولية، إذ أصبح النص عبارة عن أفعال كلامية منجزة من المؤلف، يقصد بها أنماطا من التأثير على المتلقي، وهذا ما يوحي بأهمية المقاصد في عملية التأويل، وبذلك ينقذ ركنا من أركان الشكلانية التي تنظر إلى النص في ذاته ولذاته، ويعاد الاعتبار إلى الطبقات المقامية المختلفة التي تراعيها اللغة أثناء الاستعمال. فكل الأفعال والتصرفات التي تصدر عن الإنسان لا تصدر عنه بطريقة عشوائية أو عفوية وإنما تتجه نحو هدف ما كونها وسائل وأدوات تعين القوة الدافعة مادتها واتجاهها وقصدها، فكل فعل كلامي يقدم قصدا ما .

وقد أعطت التداولية هذه الأرضية نفسا جديدا لمقاربة اللغة، وحاولت أن تخلصها من بوتقة الانغلاق الوصفي الذي عرفته مع الدراسات اللسانية البنيوية "وتعيد الاعتبار إلى الموجهات التي "تساهم في دلالة الجمل فتتجاوز الدلالة الملموسة مباشرة التي تقدمها الوحدات المعجمية في علاقاتها مع بعضها إلى دلالات ضمنية يمكن التوصل إليها من خلال الاستلزامات الحوارية وتقتضي استحضار مكونات أخرى سياقية داخلية وخارجية تمكن المتلقي من الانتقال من الدلالة الطبيعية إلى الدلالة غير الطبيعية" (إلفي يولون، 2018، ص8).

وهذا ما يؤكده عادل فاخوري عندما جعل: العلامات اللغوية في حالة إفرادها لا ترتبط بمدلولاتها إلا ارتباط مواضعة واصطلاح، فإن التركيب اللغوي لا ينبئ عن مدلوله بمجرد المواضعة بل لا بد من اعتبار قصد المؤلف (عادل فاخوري، 1994، ص9-10). وهذا يدل دلالة قاطعة على ارتباط الدلالة اللغوية بالقصد أو المقصدية كقاعدة عرفية انبنى عليها الخطاب اللغوي لنقل المعنى كما أراده المرسل، لأنه لا وجود لأي تواصل عن طريق العلامات دون وجود قصدية وراء فعل التواصل.

1. في معنى القصد:

لغة: قال ابن منظور في لسان العرب: " لا يقال عُنيتُ بحاجتك إلاّ على معنى قصدتها، من قولك عَنيتُ الشيء، أعنيه، إذا كنت قاصدا له... بمعنى عنيت بالقول كذا: أردت" (ابن منظور، مادة: عنا).

وقال أيضا: " سمي الشعر التام قصيدا لأن قائله جعله من باله، فقصد له قصدا، ولم يحتسه حسيا على ما خطر بباله، وجرى على لسانه بل روى فيه خاطره واجتهد في تجويده" (ابن منظور،1999، مادة: قصد).

يتبين لنا مما سبق أن الدلالة اللغوية للقصد تحتمل معنيين وهما:

- دلالة داخلية نفسية تتعلق بالإضمار.
- دلالة خارجية تداولية وتتعلق بالغاية العملية لتلك النية المضمرة.

اصطلاحا: هي ركيزة من ركائز التأويلية المعاصرة، ترى أن النص مجموعة من الأفعال الكلامية المنجزة من طرف المؤلف يقصد بها أنماطا من التأثير، وهكذا فاللغة فعل قصدي متميز، وعليه لا يمكن أن نتصور نصا أو خطابا من غير قصد، وهذا ما يؤكده "أوستين" الذي يرى بأنه يجب أن يكون للمشاركين في العملية التواصلية، القصد والنية لتحقيق الفعل الكلامي" (أوستين، 1991، ص28).

وهكذا يتبين لنا أن المقصدية تركز على ظواهر بنية الخطاب اللغوي وما ينضوي تحته من عناصر كالمتكلم أو المستمع، المقاصد أو النوايا، السياق والمقام، وهي كلها متظافرة تسهم في إبراز الدلالة المقصدية وتجنبنا تفلت المعنى وتشظيه.

2. البعد المقصدي في التراث النقدي والبلاغي

أولى النقاد والبلاغيون العرب المقصدية اهتماما كبيرا حتى عدّت البلاغة في أصلها علم المقاصد، يقف على رأس هؤلاء الجاحظ الذي اهتم بالمقاصد اهتماما كبيرا في فهم الكلام فيقول: " لأن الفتح نفسه (أي فتح العينين للإبصار) لو لم يكن معه قصد وإرادة ما كان فعل الفاتح، فكيف يجوز أن يكون الإدراك فعله من غير قصد؟... والعلم السابع: علمك بقصد المخاطب إليك وإرادته إياك عند المحاورة والمنازعة" (الجاحظ، 1979، ص50-51.).

ومعنى ذلك أن كل فعل أو تصرف عند الجاحظ يصدر عن الإنسان عن قصد ولا يصدر عنه بصورة عشوائية أو عفوية وإنما يتجه نحو هدف ما، فكل فعل كلامي يعتمد قصدا ما.

وإلى القصد في تأليف الشعر وليس غيره ثم تلقي ذلك الكلام على نحو تلك المقصدية يشير الجاحظ إلى هذا المفهوم قائلا: "ولو أن رجلا من الباعة صاح: من يشتري باذنجان؟ لقد كان تكلم بكلام في وزن مستفعلن مفعولات، وكيف يكون هذا شعرا وصاحبه لم يقصد إلى الشعر؟ ومثل هذا المقدار من الوزن قد يتهيأ في جميع الكلام، وإذا جاء بالمقدار الذي يعلم أنه من نتاج الشعر والمعرفة بالأوزان والقصد إليها، كان ذلك شعرا" (الجاحظ ،1987، ص289).

إذن فالمعول عليه في الحكم النقدي عند الجاحظ هو القصد إلى تأليف الشعر أولا ثم تلقي ذلك الكلام على نحو تلك القصدية ثانيا، لتستوي بذلك المقاصد إنتاجا وتلقيا. وإلى هذا يشير غالبية النقاد العرب المحدثين الذين تولوا بدراسة البيان عند

الجاحظ "إذ ذهب حمادي صمود إلى تحديد البيان عنده في ثلاثة أنواع هي: الوظيفة الإفهامية، التخاطبية، والإقناعية" (دشاش نور الهدى، 2021/2020، ص23)، أما محمد العمري فيصور البيان عند الجاحظ فيقول: "هو العملية الموصلة للفهم والإفهام، في حالة اشتغالها" (محمد العمري، 2010، ص21).

أما أبوهلال العسكري فيشير إلى ارتباط معنى النص بالقصد الذي أراده منتج النص، قائلا: " القصد هو المعنى الذي يقع به القول على وجه دون وجه، فيكون معنى الكلام ما تعلق به القصد" (أبو هلال العسكري، ص 33). ثم يردف فيقول: "والغرض هو المقصود بالقول أو الفعل... وسمي غرضا تشبيها بالغرض الذي يقصده الرامي بسهمه وهو الهدف" (أبو هلال العسكري، ص 35). ومعنى ذلك أن أبا هلال العسكري رادف بين كل من المعنى والغرض والهدف في مصطلح واحد هو القصد.

كما وقف ابن رشيق القيرواني في تعميقه لمفهوم الشعر وكشفه لمكوناته الأساسية فيقول: "الشعر يقوم بعد النية من أربعة أشياء وهي اللفظ والوزن والمعنى والقافية فهذا هو حد الشعر، لأن من الكلام موزونا مقفى، وليس بشعر لعدم القصد والنية، كأشياء أنزلت من القرآن ومن كلام النبي صلى الله عليه وسلم، وغير ذلك مما لم يطلق عليه بأنه شعر. والمتزن ما عرض على الوزن فقبله، فكأن الفعل صار له" (ابن رشيق القيرواني، 1981، ص20).

وما يلاحظ على هذا التعريف أن ابن الرشيق يضع حدودا للشعر وهي اللفظ والوزن والقافية والمعنى، مضيفا إليها شرط النية والقصد.

ومن خلال هذه الأقوال يتبدى لنا كيف أن مدار الأمر كله عند النقاد والبلاغيين العرب "ينصب على ما يعني المرسل من خطابه، لا ما تعنيه اللغة حتى ولو كان الخطاب واضحا، لأن معرفة قصد المرسل هو الفيصل في بيان معناه" (عبد الهادي بن ظافر، 2004، ص196). وإلى هذا يشير الباحث عبد الرحمن طه كاشفا عن خصائص

النموذج الإيصالي للغة فيقول: "إن كل حجة موجهة هي دليل يأخذ بالفعالية الخطابية في تعلقها بالمتكلم، والدليل على تعلق الحجة الموجهة بالمتكلم هو أنها تعد فعلا قصديا متميزا، ويظهر تميز قصدية الحجة في أمرين هما: عدم انفكاك القصدية عن اللغة، وتراتب القصدية.

1- عدم انفكاك القصدية عن اللغة: نعلم أن القصدية هي المجال الذي تتكشف فيه القصدية المقرونة بالتواصل بأجلى مظاهرها، وما دامت الحجة لا تفارق اللغة، فإنها تنطوي على أقوى مظهر للقصدية، ولا عجب إذ ذاك أن نجد اللفظ العربي "حج" يفيد لغة "القصد"، فتكون كل حجة (بضم الحاء)، بمثابة حجة (بفتح الحاء)، أي قصدا، ولما كانت القصدية هي التي تسند للقول قيمة الفعل، اتضح أن الوصف الفعلي ممثل بأجلى مظاهره في الحجة الموجهة.

2- تراكم القصدية: وذلك أن الحجة الموجهة تنطوي على طبقات من القصود، (بمعنى النيات) وطبقات من المقاصد (بمعنى الأهداف)، أما القصود، فمنها القصد إلى إخبار المستمع بالحجة، والقصد إلى إخباره بهذا القصد نفسه وهكذا، ومنها القصد إلى إقناع المستمع والقصد تعريف المستمع بهذا القصد الأول وهلم جرا. وأما المقاصد، فمنها الأفعال التي يريد المتكلم من المستمع القيام بها، ومنها أيضا الأفعال التي تدله على اقتناع السامع، ومنها أيضا الأفعال المشتركة التي تفيده في بناء فعله الإقناعي" (عبد الرحمن طه، 1993-1994، ص10).

كما كانت المقصدية بأبعادها المختلفة حاضرة وبشكل مكثف في (دلائل الإعجاز) لعبد القاهر الجرجاني، إذ أبان في كثير من محطاته إلى هذا البعد التداولي المتمثل في رد الاعتبار إلى قصد المتكلم لأن الكلام مع القصد يدل ويفيد، يقول:" الدلالة على الشيء هي لا محالة إعلامك السامعَ إياه، وليس بدليل ما أنت لا تعلم به مدلولا عليه، وإذا كان كذلك، وكان مما يُعلمُ ببدائه المعقول، أن الناس إنما يُكلم بعضهم بعضا ليعرف

السامع غرض المتكلم ومقصوده. فينبغي أن ينظر إلى مقصود المخبر من خبره" (عبد القاهر الجرجاني، 1992، ص530).

وحتى يبين المتكلم على هذا المقصد ويظهره، عليه كما يذهب إلى ذلك الجرجاني أن يرتب الجمل وينظمها تنظيما يحقق مبتغاه، ونظم الكلم الذي يكون في الجمل وليس في الحروف فيقول:" نظم الحروف هو توالها في النطق وليس نظمها بمقتضى عن معنى، ولا الناظم لها بمقْتفٍ في ذلك رسما من العقل اقتضى أن يتحرى في نظمه لها ما تحراه. فلو أن واضع اللغة كان قد قال (ربض) مكان (ضرب)، لما كان في ذلك ما يؤدي إلى فساد. وأما نظم الكلم فليس الأمر فيه كذلك، لأنك تقتفي نظمها آثار المعاني وترتّبها على حسب تَرتُّب المعاني في النفس " (عبد القاهر الجرجاني، 1992، ص49)، كما يؤكد أن الفائدة لا تكون "بضم الشيء إلى الشيء كيف جاء واتفق. ولذلك كان عندهم نظيرا للنسج والتأليف والصياغة والبناء والوشي والتحبير وما أشبه ذلك، مما يوجب اعتبار الأجزاء بعضها مع بعض، حتى يكون لوضع كل حيث وضع، علة تقتضي كونه هناك، حتى لو وضع في مكان غيره لم يصلح" (عبد القاهر الجرجاني، 1992، ص49).

فالجرجاني بهذا الطرح يؤكد على قضية هامة وهي أن اللفظ المفرد لا مزية فيه، إلا إذا أدى وظيفة في السياق، فالنظم أو تأليف اللفظ مع المعنى في تركيب واحد، ذي تنظيم خاص، هو الذي يعطي ذلك اللفظ قيمته وفائدته، وهذا يعني أن الكلمة المستخدمة في السياق شحنة من العواطف والمشاعر إلى جانب معناها المجرد، وبهذا تكشف عن المقاصد والغاية من الكلام.

كما وقف الجرجاني عند قضية هامة من قضايا التداولية وهي قضية ربط اللغة بالاستعمالات المختلفة لها، والتي تتغير بتغير السياقات والمقامات، نورد شاهدا من الدلائل يروي فيه قصة حدثت بين الكندي والمبرد، يقول: "روي عن ابن الأنباري أنه قال: ركب الكندي المتفلسف إلى أبي عباس وقال له: إني لأجد في كلام العرب حشوا،

فقال له أبو العباس: في أي موضع وجدت ذلك، فقال: أجد العرب يقولون: عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله قائم، ثم يقولون: إن عبد الله لقائم،، فالألفاظ متكررة والمعنى واحد، فقال أبو العباس: بل المعاني مختلفة لاختلاف الألفاظ، فقولهم: عبد الله قائم، إخبار عن قيامه، وقولهم: إن عبد الله قائم، جواب عن سؤال سائل، وقولهم: إن عبد الله لقائم جواب عن إنكار منكر قيامه فقد تكررت الألفاظ، لتكرر المعاني، قال: فما أحار المتفلسف جوابا" (عبد القاهر الجرجاني، 1992، ص242).

كما حاول الجرجاني أن يضرب لنا نماذج من الاستعمالات اللغوية المختلفة وذلك باستحضار الوظيفة والقصد الذي يعكس كل واحدة منها، الفصل والوصل، الحذف والذكر والتقديم والتأخير، ومن الأغراض التي استدعت هذا التقديم وعدم الاكتفاء بالعبارات المجملة (التقديم لأجل العناية والاهتمام) يقول الجرجاني: "وقد وقع في ظنون الناس أنه يكفي أن يقال: إنه قدّم للعناية، لأن ذكره أهم من غير أن يذكر، من أين كانت تلك العناية؟ وبم كان أهم؟" (عبد القاهر الجرجاني، ص108)، ويؤكد قائلا: "من الخطأ أن يقسم الأمر، في تقديم الشيء وتأخيره، قسمين: فيجعل مفيدا في بعض الكلام وغير مفيد في بعض، وأن يعلل تارة بالعناية وأخرى بأنه توسعة على الشاعر والكاتب...ذاك لأن من البعيد أن يكون في جملة النظم ما يدل تارة ولا يدل أخرى، فمتى ثبت في تقديم المفعول مثلا غلى الفعل في كثير من الكلام، أنه قد اختص بفائدة لا تكون تلك الفائدة مع التأخير فقد وجب أن تكون تلك القضية في كل شيء وفي كل حال" (عبد القاهر الجرجاني، 1992، ص110).

وهذا ما أكدته التداولية الغربية التي تركز على الجانب الوظيفي التداولي أكثر من تركيزها على الجوانب البنيوية، "وأساس هذا النموذج الإيصالي هو الأخذ بما يسمى ب"نظرية الأفعال اللغوية" التي وضع أصولها "أوستن" وأقام بناءها "سورل" ووسع مجالها "غرايس" و"فان إيمرون" و"خروتندورست"، ومبنى هذه النظرية إجمالا على أن

الجمل الفعلية لا تنقل مضامين مجردة، وإنما تؤدي وظائف تختلف باختلاف السياقات والمقامات المتنوعة، فإذا قال القائل: "هل سوس موطن العلم؟"، فإن القضية التي ينطوي عليها هذا القول، أو قل بالاصطلاح،" المضمون القضوي"، هو "كون سوس موطن العلم"، ولكن هذا المضمون، إذا أفاد في هذا السياق استخبارا، فإنه قد يفيد في سياق آخر استنكارا، كما قد يفيد في سياق ثالثا استحثاثا، وهكذا فالاستخبار والاستنكار والاستحثاث وأمثالها من المعاني كالجزم والطلب والأمر والنهي والوعد والوعيد والإنذار والاعتذار والتوبيخ والتنويه، أفعال مثل الأفعال السلوكية، إنما اختص بها السلوك اللغوي" (عبد الرحمن طه، د ت، ص11).

كما نجد حضورا مميزا للمقصدية في نظرية حازم القرطاجنّي وفي شروطه للتلقي السليم للشعر والخطابة "فالشعر عنده كلام يهدف إلى تغيير السلوك واتخاذ المواقف، فيكون به مقصودا لحمل المتلقي على القيام ببذل معين، والذي يقتضي إقبالا أو إدبارا، كما قصد الشاعر إليه" (تسعديت فوراري، 2008، ص10).وفي هذا الصدد يقول حازم القرطاجنّي:" ولما كان المقصود من الشعر إنهاض النفوس إلى فعل الشيء أو طلبه أو اعتقاده أو التخلي عن فعله أو طلبه أو اعتقاده...وجب أن تكون موضوعات صناعة الشعر الأشياء التي لها انتساب إلى ما يفعله الإنسان ويطلبه ويعتقده" (حازم القرطاجني، 1986، ص106).

فالمقصدية التداولية للغة عند حازم أمر ضروري من أجل فهم استراتيجية الإبداع والتلقي عنده، فهي نسق داخلي يحكم القصيدة من بداية مطلعها "وهو أن يجعل مبدأ كلامه دالا على مقصده ويفتتح القول بما هو عمدة في غرضه" (حازم القرطاجني، 1986، ص206) وانتهاء بطريقة تلقي الشعر وفهمه وفق مقاصد قائله، "فالقصد أمر محوري معتمد في القول الشعري أو هو هدف تواصلي واع يستحضر المتلقي أثناء الإبداع" (فاطمة الوهبي، 2002، ص194).

وبناء على ما تقدم، يمكننا القول إن الممارسة الخطابية تكشف لنا أن فهم اللغة لا يستند لقانون لغوي دقيق، يسمح بفهم صحيح للجمل مهما كانت بساطتها، فإنه على متلقي هذا الخطاب، أي خطاب كان، ألا يقتصر على المستويين التركيبي والدلالي له، بل عليه أن يوسع فهمه إلى المقصد من الكلام، فهو مطالب بممارسة تداولية بتقديم افتراضات تمثل الحالة الذهنية للمتلقي، كما يفرض أن يناسب المقال المقام فيكون المقصد هنا أنه لا ينتج جملة تقريرية، وهو ما يدفعه إلى الاعتماد على معارفه وعلى المقام وجميعها ذات طبيعة غير لسانية، وهذا ما أكدته البلاغة العربية.

3. البعد المقصدي للبلاغة العربية والربط بين المقام والمقال:

عملت البلاغة العربية القديمة على استحضار الموقف التواصلي والربط بين المتكلم والمتلقي وذلك على أساس ربط المقال بالمقام وفي هذا الشأن يقول ابن خلدون " إن الأمور التي يقصد المتكلم بها إفادة السامع من كلامه إما تصور مفردات تسند و يسند إليها، ويفضي بعضها إلى بعض، والدّالة على هذه هي المفردات من الأسماء والأفعال والحروف، وإما تمييز المسندات من المسند إليها والأزمنة ويدل عليها بتغير الحركات وهو الإعراب، وأبنية الكلمات وهذه كلها صناعة النحو، ويبقى من الأمور المكتنفة بالواقعات، المحتاجة للدلالة أحوال المتخاطبين أو الفاعلين، وما يقتضيه حال الفعل، وهو من محتاج إلى الدلالة عليه لأنه من تمام الفائدة، وإذا حصلت للمتكلم فقد بلغ غاية الإفادة في كلامه وإذا لم يشتمل على شيء منها، فليس من جنس كلام العرب، فإن كلامهم واسع **ولكل مقام عندهم مقال يختص به بعد كمال الإعراب والإبانة**" (ابن خلدون، 2003، ص570).

يركز ابن خلدون في هذا النص على البعد التداولي المقامي لمعرفة مقاصد المقال، وقد دلّل على ذلك أن الإفادة لا تكون في الخطاب إلا بضرورة مراعاة علم النحو وتركيب الجمل وصياغتها صياغة صحيحة وربط هذا المقال بالمقام بتمام الفائدة،

وذلك لأن البلاغة هي أن تنهي المعنى إلى قلب السامع فيفهمه "حتى قيل أن البلاغة هي إبلاغ المتكلم حاجته بحسن إفهامه" (سعد العتيق، د ت، ص8).

وعلى هذا المنوال سار السكّاكي في كتابه "مفتاح العلوم" حيث يقول: " إن الغرض الأقدم من علم الأدب لما كان هو الاحتراز عن الخطإ في كلام العرب، وأردت أن أحصّل هذا الغرض، وأنت تعلم أنّ تحصيل الممكن لك لا يتأتّى بدون معرفة جهات التحصيل واستعمالها، لا جرم أنّا حاولنا أن نتلو عليك في أربعة أنواع مذيلة بأنواع أخرى، مما لا بد معرفته في غرضك، لتقف عليه ثم الاستعمال بيدك، وإنما أغنت هذه، لأن مثارات الخطإ إذا تصفحتها ثلاثة: المفرد، والتأليف، وكون المركب مطابقا لما يجب أن يتكلم به، وهذه الأنواع بعد علم اللغة هي المرجوع إليها في كفاية ذلك ما لم يتخطّ إلى النظم، فعلما الصرف والنحو يرجع إليهما في المفرد والتأليف ويرجع إلى علم المعاني والبديع في الأخير" (السكاكي، 1981، ص106).

وبهذا يمكننا القول إن البلاغة العربية ذات بعد مقصدي تداولي حتى عدت هي في أصلها علم مقاصد، وهي ذات بعد وظيفي لأنها تبحث في كيفية مطابقة الكلام لمقتضى الحال رابطة بين المقام والمقال، وهذا ما يؤكده القزويني عندما يقول:" إن بلاغة الكلام مطابقته لمقتضى الحال مع فصاحته وهو مختلف، فإن مقامات الكلام متفاوتة، فمقام كل من التنكير والإطلاق والتقديم والذكر يباين مقام خلافه، ومقام الفصل يباين مقام الوصل، ومقام الإيجاز يباين مقام خلافه، وكذا خطاب الذكي مع خطاب الغبي، ولكل كلمة مع صاحبتها مقام" (أبو العباس أحمد بن يعقوب المغربي، 2003، ص16- 17).

4. الابتداءات وفعل القصدية عند النقاد العرب والبلاغيين:

كما حرس النقاد والبلاغيون العرب على عملية التفاعل أو التبليغ التي يتضمنها النص الأدبي، لذلك نراهم يلزمون الأديب على اختيار أنسب الطرق لتوصيل مغزاه،

إيمانا منهم بأن لكل نص شعرا كان أو نثرا، فإنه يحمل في ثناياه قصدا متعلقا بالأديب، ويعمل من خلاله على تحريك أجزاء النص وفقا لهذا المبتغى والقصد، لذلك قال بعضهم: "ليس يحمد من القائل أن يعمى معرفة مغزاه على السامع لكلامه في أول ابتدائه، حتى ينتهي إلى آخره، بل الأحسن أن يكون في صدر كلامه دليل على حاجته مبيّن لمغزاه ومقصده، كما أن خير أبيات الشعر ما إن سمعت صدره عرفت قافيته" (أبو هلال العسكري، 1986، ص442).

غير أن الكاتب قد يعمد إلى إخفاء مقاصده عن المتلقي إلى آخر النص على أساس أنها تسهم في جلب انتباه السامع أو المتلقي ليتتبع المعنى ويتمكن من فهم مقصد صاحب النص وغايته، إلا أن ذلك وكما يذهب إليه غالبية النقاد العرب القدامى ضرب من التعمية المستنكر، لأنها تضعف بلاغة الخطيب، لذلك فقد حرص هؤلاء النقاد على أن يتضمن عمود بناء النص قصد المؤلف/ المتكلم ومدى فعاليته في تشكل النص، يقول ابن طباطبا: "ومن أحسن المعاني والحكايات وأشدها استفزازا لمن يسمعها، الابتداء بذكر ما يعلم له إلى أي معنى يساق القول فيه قبل استتمامه وقبل توسط العبارة" (ابن طباطبا، د ت، ص55). ولم يكتف الناقد ابن طباطبا بالإشارة على أن من أحسن تراكيب القول أن يتضمن الابتداء إلى قصد المؤلف، إذ يبين الغرض المبتغى من هذا التأليف على أنه استفزاز للمتلقي وتنشيط لذهنه، وهذا ما يؤكده الحاتمي إذ يوجب على الشاعر "أن يجعل افتتاح كلامه أحسن ما يستطيع لفظا ومعنى، يبتدئ قصيدته بما شاكل المعنى الذي قصد له" (أبو علي الحاتمي، 1965، ص67).

وبنفس الولع والاهتمام وقف ابن الأثير عند مطلع الكتابة النثرية حيث جعل الكشف عن القصد في مطلع الكتاب من أولى اهتمامات الكاتب فيقول: "أن يكون

مطلع الكتاب عليه جدة ورشاقة، فإن الكاتب من أجاد المطلع والمقطع، أو أن يكون مبينا على مقصد الكاتب" (ابن الأثير، د ت، ص96).

ومعنى ذلك أن ابن الأثير ركز على أمرين اثنين وهما: الجدة والرشاقة مع الإبانة عن مقصد الكاتب وله أن يختار أحد الأمرين. أما فيما يتعلق ببدايات القصائد والرسائل فيقول: "وحقيقة هذا النوع أن يجعل مطلع الكلام من الشعر أو الرسائل دالا عن المعنى المقصود من هذا الكلام: إن كان فتحا ففتح، وإن كان هناء فهناء، أو عزاء فعزاء، وكذلك يجري الحكم في غير ذلك من المعاني، وفائدته أن يعرف من مبدأ الكلام ما المراد به، ولم هذا النوع" (ابن الأثير، د ت، ص96).

خاتمة:

وبناء على ما تقدم نتوصل إلى مجموعة من النتائج يمكن أن نوجزها فيما يلي:

- اهتمام النقاد العرب القدامى وبلاغيهم بالنص الأدبي نظير اهتمامهم **بمقاصد المتكلم** وقدرته على بناء قناة تواصلية يبين من خلالها على أفكاره ورؤاه للمتلقي.

- كانت **المقاصد** عندهم **هي المحرك للمعاني** ومفاتيح أقوالهم، لذلك شاعت هذه الأقوال عندهم" **اللغة هي أصوات يعبر بها كل قوم عن أغراضهم**" أو "**المعنى هو المقصد**".

- التركيز على **الإبانة والإفصاح** في العملية التواصلية، خاصة عند المرسل الذي يجب عليه أن يجد الأسلوب الأليق في التعبير عن قصده واختيار الآليات المناسبة لذلك.

- الاهتمام **بالنظم أو تأليف** اللفظ مع المعنى في تركيب واحد، ذي تنظيم خاص، هو الذي يعطي ذلك اللفظ قيمته وفائدته، وهذا يعني أن الكلمة المستخدمة في السياق شحنة من العواطف والمشاعر إلى جانب معناها المجرد، وبهذا تكشف عن المقاصد والغاية من الكلام.

- استحضار البلاغة العربية للموقف التواصلي وربطه بمتكلم ينجزه ومستمع يستقبله على أساس ربط **المقال بالمقام** الذي أنجز فيه.

- وتحقيقا للأغراض السابقة حرص الخطاب النقدي القديم على تجويد **ابتداءات القصائد** لأنها أول ما يقرع السمع، ومثلوا لذلك بأروع الإبتداءات، كما استنكروا الإبتداءات المعقدة لأنها لا تفصح عن المعاني ولا تكشف عن القصد والغرض.

التوصيات:

العمل على توسعة دائرة البحث في المقصدية العربية وذلك بالعودة إلى كتب التراث بشقيه النقدي والبلاغي لنكتشف أكثر الأبعاد التداولية التي انبنى عليها النقد العربي القديم وبلاغته، ومن ثم توظيفه في مناهجنا التعليمية الحديثة، مع الاستعانة بآخر مستجدات البحث التداولي الغربي. وهذا ما يؤكده عبد المالك مرتاض قائلا:" علينا بلورة تلك الأفكار والتأسيس لها والانطلاق منها لتأسيس نظرية نقدية أصيلة متكاملة" (عبد المالك مرتاض، 2003، ص8).

قائمة المصادروالمراجع:

1. ابن الأثير، (د ت)، المثل السائر، ج1
2. ابن خلدون، (2003)، مقدمة ابن خلدون، ط1، لبنان: دار الفكر،
3. ابن رشيق القيرواني، (1981)، العمدة، ج1، بيروت: دار الجيل للنشر والتوزيع والطباعة.
4. ابن طباطبا، (د ت)، عيار الشعر، تح، محمد زغلول سلام، منشأة المعارف، الإسكندرية، جلال حزى وشركاه.
5. ابن منظور، (1999)، لسان العرب (مادة قصد)، تح: أمين محمد عبد الوهاب ومحمد الصادق العبيدي، ط3، بيروت: دار إحياء التراث، العربي.
6. ابن منظور، (د ت)، لسان العرب (مادة عنا)، ط2، بيروت، لبنان: دار صادر.
7. أبو العباس أحمد بن يعقوب المغربي، (2003)، مواهب الفتاح في شرح تلخيص المفتاح، تح خليل إبراهيم خليل، ط1، لبنان: دار الكتب العلمية.

8. أبو علي الحاتمي، (1965)، الرسالة الموضحة في ذكر سرقات أبي الطيب المتني، وساقط شعره، تح: محمد يوسف نجم، بيروت، لبنان: دار صادر.

9. أبو هلال العسكري، (د ت)، الفروق اللغوية، تحقيق محمد إبراهيم، ط1، القاهرة: دار العلم والثقافة للنشر والتوزيع.

10. أبو هلال العسكري، الصناعتين (1986)، تح محمد علي التجاوي، ومحمد أبو الفضل ابراهيم، بيروت: المكتبة العربية.

11. إلفي يولون، (2018)، المقاربة التداولية للأدب، ترجمة محمد تنفو، رؤية للنشر والتوزيع.

12. أوستين (1991)، نظرية أفعال الكلام العامة، كيف ننجز الأشياء بالكلام، ترجمة عبد القادر قينيني، إفريقيا الشرق

13. تسعديت فوراري، (2008)، المتلقي في منهاج البلغاء وسراج الأدباء، دمشق: منشورات اتحاد كتاب العرب.

14. الجاحظ، (1977)، رسائل الجاحظ، رسالة في المسائل والجوابات في المعرفة تح: عبد السلام هارون، ط1، ج4، القاهرة: مكتبة الخانجي.

15. الجاحظ، البيان والتبيين، (1987)، تح، ط7، ج1، القاهرة: مكتبة الخانجي.

16. حازم القرطاجني، (1986)، منهاج البلغاء وسراج الأدباء، تحقيق محمد الحبيب بن خوجة، بيروت: دار الغرب الإسلامي.

17. دشاش نور الهدى، (2021/2020)، أسلوبية الحجاج عند عبد الله صولة، في كتاب: الحجاج في القرآن الكريم، أطروحة دكتوراه، إشراف عبد الغني بارة، جامعة سطيف

18. سعد العتيق، (د ت)، علم المعاني- البيان- البديع، بيروت: دار النهضة العربية للطباعة والنشر.

19. السكاكي، (1981)، مفتاح العلوم، تحقيق أكرم عثمان يوسف، ط1، بغداد العراق: دار الرسالة.

20. عادل فاخوري، (1994)، علم الدلالة عند العرب، ط، بيروت: دار الطليعة.

21. عبد الرحمن طه، (1993-1994)، التواصل والحجاج، مطبعة المعارف الجديدة، سلسلة الدروس الافتتاحية، مطبعة المعارف الجديدة.

22. عبد القاهر الجرجاني، (1992)، دلائل الإعجاز، تح محمود محمد شاكر، ط3، مصر: دار المدني.

23. عبد المالك مرتاض، (2003)، الكتابة من موقع العدم، مساءلات حول نظرية الكتابة، دار الغرب للنشر والتوزيع.

24. عبد الهادي بن ظافر، (2004)، استراتيجية الخطاب، مقاربة لغوية تداولية، دار الكتاب الجديد المتحدة.

25. فاطمة الوهبي، (2002)، نظرية المعنى عند حازم، المركز الثقافي العربي، ط1، الدار البيضاء، المغرب: الدار البيضاء.

26. محمد العمري، (2010)، البلاغة العربية أصولها وامتداداتها، ط2، المغرب: دار إفريقيا الشرق، المغرب.